

الإمام الكاظم (ع) رحابة الأفق في دُلقه



الإمام موسى الكاظم (عليه السلام).. هذا الإمام الذي إذا قرأناه في تراثه كلاًه، فإننا نجد أنَّهُ ككلِّ أئمّة أهل البيت (عليهم السلام)، لم يترك جانباً من جوانب حركة الإسلام إلّا وأوله اهتماماً، سواء في عقل الإنسان بما يريد أن يربّي للإنسان عقله، أو في قلبه بما يريد أن يربّي به قلبه، أو في سلوكيّات حياته بما يريد أن يعمّق له الخطّ المستقيم في حركته في الحياة.

هذا الإمام الذي لا بدّ للذّاس من أن يقرأوه في هذا الأفق الواسع الممتدّ في عالم المعرفة، والذي يربط الإنسان بالإنسان، ويربط الإنسان بالإنسان، ويربط الإنسان بمسؤوليّته عن الحياة كلّها، فلا يكون مجرد شخصٍ يعيش في سجن ذاته، ولكنّه يشعر بأنّه لا بدّ من أن يعيش في حجم العالم كلاًه، لينمّي طاقاته بالمستوى الذي يستطيع أن يكون فيه عالمياً، لأنّ الله تعالى أرادنا أن نقتدي برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب/ 21)، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في رسالته إنسانياً عالمياً.. كان يفكّر في الناس كلّهم، وكان يريد أن يؤسّم العالم كلاًه.

ولا بدّ لكلّ مسلم ومسلمة من أن يعيش هذا الأفق، فلا يحبس نفسه في ذاته ولا في عائلته ولا في وطنه ولا في قوميته، بل يعيش إنسانيته في معنى الإنسان (يَـأَيُّهُـا الذِّـئـاسُ إِنْـزَالاً خَلَـقَـذَآكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْزِلَ وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا). فإِ سبحانه وتعالى لا يلغي خصوصياتنا (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ كُؤْمُؤْ عِنْدَ إِيَّآئِ أَتَقْوَاكُم) (الحجرات/ 13). وتبقى التقوى هي الأساس الذي يتفاضل الناس فيه.

هذا الإمام الذي عاش رحابة الأفق في خلقه، فكان يحسن إلى من أساء إليه، ويعفو عمّن اعتدى عليه، ويتّسع صدره حتى ليحضر أعداءه، ليعلّمهم كيف يحبّ الإنسان الإنسان، بقطع النظر عن التعقيدات التي يمكن أن تتحرك هنا وهناك. كان (عليه السلام) يواجه الغيظ من كلّ الذين لا يحترمون إنسانية الإنسان، ومن كلّ المستكبرين في الأرض، والذين يعيشون على أساس الحقد والعداوة والبغضاء، أولئك الذين لا يعرفون معنى الحبّ، ولذلك فهم يعملون على أساس أن ينفّسوا عن حقدهم ضدّ الطيبين، لكنّ الإمام (عليه السلام) كان يكظم غيظه، فلم يتحرّك بردّ فعل سلبيّ، بل كان لديه فعل من نوع آخر، فلقد كان القوم يسيئون إليه، وكان يحاول أن يعطيهم درسا في معنى الإحسان، ودرسا في معنى العفو، ولذلك سمّي كاظم الغيظ.

كان الإنسان الذي عاش مع إِيَّ سبحانه وتعالى بأعلى الدّرجات، فقد كان إِيَّ حاضرا في عقله، فليس في عقله مكان إلاّ إِيَّ، وكان إِيَّ حاضرا في قلبه، فقلبه كلّّه عرش إِيَّ، وكان إِيَّ حاضرا في حياته كلّّها، فكانت حياته للرّسالة كلّّها، وكان يعيش اللّذّة باللّقاء بإِيَّ، ولذلك كان يطيل السجود، وكانت سجده تمتدّ من الصباح إلى الزوال، ومن الزوال إلى الغروب، ولم تكن سجدة تقليدية، ولكنّها كانت سجدة يرتفع من خلالها بروحه إلى إِيَّ عزّ وجلّ، فيناجيه ويلبّيه ويدعوه ويعطيه الحبّ كلّّه، فكان يقول فيما مضمونه: «اللّهمّ إنّني كنت أسألك أن تفرّغني لعبادتك، وقد فعلت فلك الحمد». وبذلك فإنّه كان العاشق لرّبّه.. يحبّه.. يناجيه.. يتحدّث معه، ويتواضع معه، وكان يكرّر في سجوده: «اللّهمّ إنّني أسألك الرّاحة عند الموت، والعفو عند الحساب». وليس هناك ذنب يستغفر إِيَّ منه، ولكنّه تواضع جمّ، بحيث يجلس بين يديه ليعيش كما يعيش العبد أمام سيده، لأنّ عبوديّة الإمام (عليه السلام) كعبوديّة آبائه وأبنائه، ارتفعت إلى المستوى الذي اندفع فيه مع إِيَّ في كلّ معاني الذّوبان بإِيَّ. ولأنّه أحبّ إِيَّ في أعلى درجات الحبّ، وأطاعه في أرحب مواقع الطّاعة، وجاهد في إِيَّ حقّ جهاده بكلّ معاني كلمة الجهاد: بالكلمة والموقف والمجابهة، فقد انطلق ليتحدّث وانفتح المسلمون عليه، حتى شعرت الخلافة بأنّ موقعه في المسلمين يهدّد الخلافة، فلم يتحرّك بثورة، ولكنّه كسائر الأئمّة من أهل البيت (عليهم السلام)، كانت ثورتهم أن يغرسوا الوعي في عقول الناس، وأن يعرّفوهم أنّ معنى أن تكون مسلما، أن تقلع كلّ عاطفة للطّالمين في نفسك، حتى لو كانت المسألة

تتعلّق بمصلحتك. أخرج الظّالمين من دائرة مشاعرك كلّها، حتى لا يبقى أيّ مجال للظّلم أو تأييد للظلم فيه.